

الروافد البلاغية في الدرس الأسلوبي الحديث Rhetorical sources in the modern stylistic lesson

الدكتور رابح بن خوية

جامعة البشير الإبراهيمي - برج بوعريج

الملخص

تتناول هذه الورقة الروافد البلاغية في الدرس الأسلوبي الحديث انطلاقاً من علاقة الأسلوبية بالبلاغة، هذه الأسلوبية التي كادت أو تكاد تطوي الإنجازات البلاغية وتقدم ذاتها بديلاً عنها في تناول الخطابات الأدبية بما تمتلكه من أدوات منهجية وإجرائية جديدة، وتجاوزت ما كان يربطها بالبلاغة من حيث اشتراكهما في الموضوع وفي المادة، وإذا كانت البلاغة تقوم على اكتشاف أنواع التعبير المختلفة وتسميتها وتوصيفها وتصنيفها، وهذه خطوة يعتد بها في إقامة جميع العلوم، لكن البلاغة بعد ذلك لم تحاول البحث في الهيكل أو البنية العامة لهذه الأنواع، وهذا انتهى بها إلى ما يشبه العقم والجمود. وفي ظل التطورات العلمية التي جدت فإن البلاغة بعثت مجدداً باسم الأسلوبية التي أقيمت على أسس علمية موضوعية متجاوزة الطابع الجزئي والمعياري لمقولات البلاغة ومفيدة من الدرس اللساني.

الكلمات المفتاحية: البلاغة-الأسلوبية-اللسانيات-المعيارية-الوصفية

Abstract

This paper deals with the rhetorical sources in the modern stylistic lesson on the basis of the relationship of stylistics to rhetoric, this stylistic approach that almost or nearly folds rhetorical accomplishments and presents itself as an alternative to it in dealing with literary discourses with the new methodological and procedural tools it possesses, and it overlooked what was related to rhetoric in terms of their participation in the topic. In the article, if rhetoric is based on discovering the different types of expressions, naming them, describing them and classifying them, and this is a significant step in establishing all sciences, but the rhetoric after that did not attempt to research the structure or general structure of these types, and this ended with something like sterility and immobility. In light of the scientific developments that have taken place, rhetoric has been resurrected in the name of stylistics, which were established on objective scientific foundations, overcoming the partial and normative nature of the sayings of rhetoric and benefiting from the linguistic study.

Key words: rhetoric – stylistics – linguistics – normative – descriptive

مقدمة:

تقتضي النظرة العلمية في تناول موضوع البلاغة والأسلوبية أن نميّز بين سياقين تاريخيين مختلفين لنشأة البلاغة، ومن ثم نشأة الأسلوبية في مجال الدرس اللغوي والنقدي، وهذا يعني أن ثمة بلاغتين في ثقافتين متغايرتين لهما خصوصيتهما وتاريخهما ومسار تطوّر مختلف، فثمة بلاغة عربيّة وأخرى غربيّة، وكلاهما انتهت به المطاف إلى مواجهة حتمية مع علم ناشئ هو الأسلوبية، وهذه المواجهة قد تؤدّي إلى استفادة أدنى من إمكانات الأسلوبية أو إلى إفادة أقصى؛ فيما أن تحتفظ البلاغة بكيانها المعرفي الخاص وتدعم بعض الفراغات الفجوات الملحوظة فيه بما في هذا الكيان الحديث (الأسلوبية) من وجهات نظر ورؤى ومفاهيم وأدوات منهجية، وإما أنها تتحوّل إلى هذا الكيان المعرفي الحديث وتذوب فيه.

وبناء عليه، فالإشارة إلى السياق التاريخي والثقافي والمعرفي للبلاغة العربيّة له أهميّة لتعرّف إلى ما قدّمته إلى الدرس الأسلوبي الحديث على مستوى الثقافة العربيّة وإلى ما أفادته منه.

1- الأسلوبية:

تعرّف الأسلوبية في درسنا العربيّ بأنها: "علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها أيضا علم يدرس الخطاب موزعا على مبدأ هوية الأجناس، ولذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات مختلف المشارب والاهتمامات، متنوع الأهداف والاتجاهات. وما دامت اللغة ليست حكرا على ميدان إيصالي دون آخر، فإن موضوع علم الأسلوبية ليس حكرا، هو أيضا، على ميدان تعبيرى دون آخر". (1) وبأنّها "علما تحليليا تجريديا يرمي إلى إدراك الموضوعيّة في حقل إنساني عبر منهج عقلاني" (2)، وبأنّها: "علم لغويّ حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي، أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه عن غيره، إنها تتقرى (الظاهرة الأسلوبية) بالمنهجية العلمية اللغوية وتعتبر (الأسلوب) ظاهرة هي في الأساس لغوية تدرسها في نصوصها وسياقاتها". (3) وبأنّها: "تحليل لغويّ موضوعه الأسلوب وشرطه الموضوعية وركيزته الألسنية". (4)

هذه جملة تعريفات لنقاد مختلفين، وهي عموما لا تنأى عن نظيرتها في الدرس الغربيّ فهي "علم يعنى بدراسة أسلوب الآثار الأدبية دراسة موضوعية، وهي لذلك تعنى بالبحث عن الأسس القادرة في إرساء علم الأسلوب". (5) وهي: دراسة للتعبير اللساني في مقابل الأسلوب الذي يعني

طريقة للتعبير عن الفكر بوساطة اللغة.(6) وهي بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف إنها علم التعبير وهي نقد للأساليب الفردية.(7) وهي: "وصف لغوي للنص الأدبي".(8)

وما يميز غالبية الدراسات الأسلوبية النظرية والتطبيقية عندما تعرض لمفهوم الأسلوبية والإشكالات التي تثار حول أدواتها الإجرائية في تحليل الخطابات الأدبية، هو الطابع الوصفي الذي يقوم من خلاله درس(الأسلوب).

2- الأسلوبية في علاقتها بالبلاغة:

لا يتم الحديث عن الأسلوبية بوصفها علما قائم الأسس دون أن يكون مشفوعا بحديث عن علاقتها بعلم البلاغة، الذي يعد ضمن العلوم المساعدة لها كما هو حال اللسانيات بما احتوت عليه من معارف تحولت مع الزمن إلى علوم مستقلة.

وأول ما يربط البلاغة بالأسلوبية اشتراكهما في الموضوع وفي المادة إذ كلاهما يتناول الخطاب الأدبي، فقد حاولت البلاغة اكتشاف أنواع التعبير المختلفة وتسميتها وتصنيفها وهذه خطوة يعتد بها في إقامة جميع العلوم، لكن البلاغة بعد ذلك لم تحاول البحث في الهيكل أو البنية العامة لهذه الأنواع، وهذا ما جعلها تنتهي إلى العقم والتجمد ولكنها بعثت من جديد تحت اسم الأسلوبية التي أقيمت على أسس علمية سليمة متجاوزة الطابع الجزئي والمعياري لمقولات البلاغة.

فالبلاغة لم تستطع اكتشاف النظم الفعالة ولم تتجاوز ما هو قائم، ولم تستشف الآفاق الممكنة في عملية الخلق اللغوي المستمرة في الأدب.(9)

وفي ظل هذا التصور لطبيعة العلاقة بين العلمين دأبت الأسلوبية في بحوثها على السؤال عن الخاصيات المشتركة المحتملة بين القافية والاستعارة والقلب والتضمن، وشرح فعاليتها الفنية والسؤال عن إمكانية اعتبار جميع هذه المكونات البلاغية وسائل وعوامل شعرية تقوم بوظيفة خاصة ومستقلة أم تشترك في إحداث الأثر، ويعد من مزايا البلاغة القديمة إصابتها في وضع هذه الوسائل على المستوى الشكلي، فإنها ظلت قريبة من المستوى المادي الذي تقوم فيه كل وسيلة بدورها المحدد، عندما ركزت على الفروق القائمة بينهما فحسب.

والاتجاهات النقدية الحديثة وفي مقدمتها الأسلوبية والبنوية تبحث عن العامل الشعري الذي تعد الصور وكل الوسائل الفنية مجرد تحقيقات، أو تعد ذات فعالية له لأن هذه الاتجاهات وقفت في مستوى شكلي أعلى وأعمق وبحث عن شكل للأشكال.(10)

فالقافية، إذا، كانت تنتهي إلى المستوى الصوتي الموسيقي، والاستعارة إلى المستوى الدلالي فهناك تداخل بين هذين المستويين يتصل ببنية التركيب الشعري وخصائصه الموسيقية والدلالية معا. (11)

وقد كانت العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة محطة أخرى من محطات الفكر النقدي الذي يصبو إلى تأسيس القواعد النظرية في شبكة الروابط من الواقع المعرفي، ولا مناص للباحث الأسلوبي من الوقوف عند جميع الإشكالية التي تتصل بعلمه وموضوع بحثه بالمعارف الموروثة، فتأصيل العلم بحاجة إلى الاطلاع ومعرفة ملامح الجذور الممتدة في تاريخ العلم وكثير ما تنحل المشكلات في ميدان الأسلوبيات وتجد الأسئلة المثارة إجابتها في هدى التراث.

وتراثنا النقدي الأدبي اللغوي والبلاغي تعرّف إلى الظاهرة الأسلوبية ودرسها ضمن الدرس اللغوي والبلاغي الذي يعدّ درسا أسلوبيا، على وجه الإجمال، وما كان ذلك ليكون إلا لأن الدرس اللغوي في ثقافتنا العربية كان سابقا على الدرس البلاغي، وهكذا التقت الدراسة الأسلوبية بالبلاغية في دراسة أسرار الإعجاز اللغوي والبياني، وتحولت غايات البلاغة (القديمة) إلى غايات وأهداف أسلوبية، بلا فرق فقد كانت هذه الغايات شتى.

ويمكن أن تتلخّص في أربع محاور:

- 1-دراسة الإعجاز كسمة تظهر بها فرادة القرآن وخصوصيته.
- 2-دراسة الأدبية سمة تظهر بها فرادة النص الأدبي وخصوصيته.
- 3-دراسة اللغة كأداة إيصال، بها ينتقل النص، وبها يقول نفسه ويخبر عن مضمونه.
- 4-دراسة اللغة كغاية النص وهدف الإيصال، فالنص لا يقول شيئا سواه. (12)

وفي ضوء هذا نستبين نشأة الدرس البلاغي فقد استقام علما وصفيّا وتفسيريا، وهذه خاصّة تجمعه من حيث الهوية بالدرس الأسلوبي.

قبل أن يأخذ في التحوّل، بعد ذلك، مع الوقت، يقول عبد السلام المسدي: "فالبلاغة ذات مترع تقريري بالدرجة الأولى، ثم هي تستند إلى منظومة تصنيفية اشتقت في أصلها من استقراء الحدث الأدبي في تجلياته الفنية ولكنها أنتجت مقاييس جاهزة بها تصرف فن القول في توليد مضامينها، أو نحت أشكالها فإن المحلل البلاغي لها لا بد أن يصنفها ضمن زوايا منظومته المرجعية، أما

الأسلوبية فإنها بحث دائم من داخل النص الإبداعي عن جماع الخصائص التي تحولت في سياقها المحدد إلى مميزات فنية والمحلل الأسلوبي في إجراءاته الشارحة ربما احتكم إلى منظومة مرجعية ما، ولكنها ليست منظومة من ذات العلم الأسلوبي بحيث تتحول إلى القيد إجرائي أو معيار قصري". (13)

وهذا الاختلاف الملحوظ في هوية كل العلمين يجعل الشرح البلاغي مفسرا لتقلبات البناء اللغوي في حدود الدائرة المباحة التي يحددها المعيار المرجعي الذي يستند إلى البنية النحوية، وما يقوم الأدب به من مراوحات تمثل فضاء العدول عن المعيار إزاءها.

بينما الشرح الأسلوبي يقتصر على تفسير ما ينتج عن تلك التقلبات اللغوية من مميزات ترى للغة إبداعيتها، ومعنى ذلك أنه يقوم بعملية استنطاق بنى النص في دواله وفي مدلولاته، وتغيير طبيعة الاقتران بينهما، هذا الاقتران الذي أثمر شعرية النص وحول لغته من مجرد أداة إلى إبداع تم باللغة في إطار اللغة. (14)

ونتيجة لهذا الالتباس الذي يحدث بين طبيعة العلمين بالنظر إلى تداخل أدواتها الإجرائية أحيانا، قد ظهرت مقاربات نقدية متنوعة تعتبر من الأبحاث الأسلوبية وتحمل عناوين توحى بذلك من قيل (دراسة أسلوبية) أو (تحليل أسلوبية) وهي في صميمها تحليلات بلاغية لنصوص أدبية، وهذا لا ينكر على الأسلوبية أن تستثمر من الأدوات البلاغية ما تراه قريبا من منظومتها المفهومية، وما يعد بمثابة المفاتيح لولوج عوالم الإبداع أحيانا، ولكن على الأسلوبية أن لا تقع في المزالق التي أودت بالبلاغة وعليها أن تتجاوز ذلك بما تكلفه لها اللسانيات الحديثة ولسانيات النص من أدوات فعالة.

وقد سعى هنريش بليث إلى إعادة إحياء البلاغة بروح جديدة، فالمفهوم العلمي الحديث للبلاغة يخالف اعتبارها فنا فحسب، بل البلاغة منهج يمس خاصية ملازمة للإنسان هي الكلام، ويعد الهدف الأول والنشاط الأساسي للبلاغة العلمية، اليوم، ليس إنتاج النصوص، وهذا يفهم بالاحتكام إلى معايير سابقة، بل تحليلها داخليا وفق معطيات حضورية.

وعملية بناء البلاغة بعدها منهجا لتحليل النصوص يركز على مبررين:

الأول ويحمل طبيعة تاريخية، فنصوص كثيرة تنتج حسب قواعدها، وعندما تستعمل بعد ذلك المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإننا سنكشف عن تركيبها الشكلي القصدي، فما كان متصورا عن طريق الفكر والتعابير المعيارية أمكن إدراكه بفضل الوصف العلمي.

والثاني فذو طبيعة جوهريّة ومنهجية، فقد أثبت النسق البلاغي قابلية الاستمرار ومرونة تسمح في التماذي في تطبيقه على نصوص جديدة، ومن ثم يمكن تطبيق البلاغة بلا تردد على جميع النصوص الممكنة. (15)

وهكذا، فالبلاغة تقيم علاقات وطيدة مع الأسلوبية منذ زمن بعيد فقد تقلص الأسلوبية حتى لا تعدو أن تكون نموذجا للتواصل البلاغي وتتسع حتى تكاد تكون بديلا للبلاغة وتجاوز لها.

ولا غنى لنظرية الأدب عن البلاغة والأسلوبية فهما يمتلكان دلالة أساسية بالنسبة إليها، ويكونان إمكانيتين لمقاربة الأدب وأساليبه المختلفة مما حمل هنريش بليث على القول: "إن بلاغة الأسلوب ستشد إليها انتباهنا، ليس لأنها توجد في مركز الحوار فحسب، ولكن ذلك أيضا وبشكل خاص لكونها نقطة التقاء ثلاثة مباحث أخرى هي: البلاغة، الأسلوبية، والشعرية." (16)

والسؤال الذي يفرض نفسه، في ظل الأهمية التي تولى للأسلوبية على حساب البلاغة، هل تستطيع الأسلوبية كعلم حديث للأسلوب أن تقوم مقام البلاغة، وأيضا تلعب دورها التعليمي المعياري؟ وهل تستطيع التوفيق بين المنهجية العلمية للبحث اللغوي، وبين الطابع الذوقي للبلاغة أو النقد الأدبي؟

ومما لا شك فيه أن البلاغة قامت بدور أساسي بين علوم الأدب ونقده، فهي تعلم الأفضل من الأقوال والأقوم من التراكيب، وذلك بمعيارية تقوم على الذوق السليم، ولكن طموح الأسلوبية باعتبارها فرعا من فروع الشجرة اللسانية ينبه الباحث إلى حقيقة البحث البلاغي ومعياريته بينما الأسلوبية تريد أن تحد بحثها بالظاهرتين، الأسلوبية واللغوية وتريد على الخصوص دراسة الأسلوب من خلال اللغة وليس من خلال قواعد البلاغة المعيارية أو سواها. (17)

وتعد البلاغة في خطوطها العريضة فنا للكتابة، وفنا للتأليف في الوقت نفسه؛ إنها فن لغوي وفن أدبي، وهاتان سمتان قائمتان في الأسلوبية المعاصرة، فهي أسلوبية القدماء، وهي علم الأسلوب، كما كان يمكن للعلم أن يدرك حينئذ في شرطه التاريخي. (18)

فلا غرابة بعد ذلك أن يلتقي على وجه من التناسب والانسجام التحليل المضموني للتعبير الذي أنجزته البلاغة مع الطريقة البيانية، التي تقوم بها اللسانيات، وقد نشأت أسلوبية التعبير عن البلاغة القديمة ولكن بطرق جديدة، والدليل الواضح على إسهام البلاغة ودورها الأساسي الذي يجسد دراسة الصور، فما تزال في الغالب دراسة بلاغية ولم تتجاوزها دراسة أخرى، وهذا ما جعل بيير جيرو يؤكد على أهمية البلاغة، إذ يقول: "إنها لتحتوي على مخزون من الملاحظات والتعريفات التي من شأنها أن تجعل اللساني يعيد النظر فيها ويعمقها على ضوء المناهج الحديثة". (19)

إن كل ما ذكرناه، سابقا، عن طبيعة العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة، والملابسات التي اكتنفها كان من وجهة نظر تريد التقريب بين العلمين ومد الجسور المعرفية بينهما. بينما تبرز وجهة نظر أخرى ترى تنافرا في العلاقة بين العلمين، ولا يمكن أن يوجد معا، والواقع اللساني يقر بأن الأسلوبية إنما هي وريث البلاغة. (20)

ومعنى الوريث هنا هو كونها البديل في عصر البدائل، والقطيعة مع المناهج التقليدية التي أثبت التطور التاريخي فشلها، وبناء عليه فقد ذهب المسدي إلى القول: "لأسلوبية واللسانيات أن تتواجدا، أما الأسلوبية والبلاغة كمتصورين فكريين فتمثلان شحنتين متنافرتين متصادمتين لا يستقيم لهما تواجد في تفكير أصولي موحد". (21)

وقد أقر الباحثون، من هذا المنطلق، أن الأسلوبية وليدة البلاغة ووريثها الشرعي، فالأسلوبية "امتداد للبلاغة ونفي لها في نفس الوقت، هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضا". (22)

وقد لخص المسدي أبرز الفروق القائمة بين المنظورين البلاغي والأسلوبي فيما يلي:

- 1-البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية ويرمي إلى تعليم مادته، وموضوعه: بلاغة البيان، بينما ترفض الأسلوبية كل معيارية ولا تسعى إلى غاية تعليمية.
- 2-البلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وتصنيفات جاهزة، بينما تتحدد الأسلوبية بقيود منهج العلوم الوصفية.
- 3-البلاغة ترمي إلى خلق الإبداع بوصاها التقييمية بينما تسعى الأسلوبية إلى تحليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.

4-البلاغة اعتمدت فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني فميزت في وسائلها العملية بين الأغراض والصور بينما ترغب الأسلوبية عن كل المقاييس الماقبلية وترفض مبدأ الفصل بين وجهي العلامة اللغوية الدال والمدلول إذ لا وجود لكليهما إلا متقاطعين ومكونين للدلالة فهما بمثابة وجهي ورقة واحدة.(23)

وحصيلة المقارنة بين البلاغة والأسلوبية تتجمع في قول عبد السلام المسدي: "أن منحى البلاغة متعال بينما تتجه الأسلوبية اتجاهها اختباريا، معنى ذلك أن المحرك للتفكير البلاغي قديما يتسم بتصور ماهي بموجبه تسبق ماهيات الأشياء وجودها، بينما يتسم التفكير الأسلوبي بالتصور الوجودي الذي بمقتضاه لا تتحدد للأشياء ماهياتها إلا من خلال وجودها، لذلك اعتبرت الأسلوبية أن الأثر الفني معبر عن تجربة معيشة فرديا.".(24)

وتبعا لهذا التمايز في هوية العلمين، فالباحث البلاغي يعتمد على ما ثبت من مقاييس ومعايير، جعل لها السابقون مسميات ومصطلحات وليس في مستطاعه أن يخرج عنها في معاملة النص الأدبي بينما نظيره الأسلوبي فيدرس الظواهر الأدبية في سياقات معينة ويبحث ما لتلك التنظيمات اللغوية من خصائص إبداعية فنية.(25)

وبهذا الصدد يذكر لطفي عبد البديع، في معرض تسجيل المفارق الموجودة بين العلمين، أن الأسلوبية الجديدة فإنها على الجملة لا تكتفي بتعيين ما هنالك من خصوصيات للكلام، ولا تعتمد على تعميم الأحكام، بل تبحث عن العلل وتقيم من التحليل الذري الذي تعتمده البلاغة مبدأ موحدًا جامعا لها ثم تجربها على غاية استطبيقية(جمالية)عامة تداخل العمل الأدبي كله وتجلي روح الإنسان فيه، فالصور البيانية وأنواع البديع ليست صيغا تالية يؤتى بها للتزيين وللتحسين، وإنما هي جوهرية في لغة الشاعر لا تتحقق المادة الشعرية إلا بها واللغة الشعرية من خلق الشاعر.(26)

وينبه إلى نقطة مهمة تتمثل في كيفية تعامل كل من الأسلوبية والبلاغة مع اللغة، فاللغة في الأسلوبية مرجعها الأساسي الشاعر، فهو الذي يملك التصرف فيها والقدرة على الخلق والإبداع، أما في منظور البلاغة فاللغة عالم له وجوده الخاص بقطع النظر عن الشاعر.

وقد أحصى نور الدين السد جملة الفروق الثابتة بين الأسلوبية والبلاغة وحصرها في سبع عشرة نقطة، نذكر منها الأهم من خلال هذا الجدول التوضيحي(27):

الأسلوبية	البلاغة
علم وصفي ينفي عن نفسه المعيارية.	علم معياري.
لا تطلق الأحكام التقييمية.	يرسل الأحكام التقييمية.
لا تسعى إلى غاية تعليمية.	يرمي إلى تعليم مادته.
تحدد بقيود منهج العلوم الوصفية.	تحكم بمقتضى أنماط مسبقة.
تسعى إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها.	يقوم على تصنيفات جاهزة.
لا تقدم وصايا لكيفية الإبداع الأدبي.	يرمي إلى خلق الإبداع بوصايا تقييمية.
لا تفصل بين الشكل والمضمون.	يفصل الشكل عن المضمون.
تعد الانزياحات عوامل غير مستقلة وتعمل في علاقة جدلية مع باقي عناصر الخطاب كله.	تعد الانزياحات وسواها من الظواهر عوامل مستقلة لحسابها الخاص.
تدرس الألفاظ الفصيحة وغير الفصيحة وتحللها وتحدد وظائفها ولا تقول بهجر أي عنصر من العناصر.	يهتم بفصاحة الألفاظ وانسجام الأصوات ويقول بهجر الألفاظ غير الفصيحة والمركبة من أصوات متقاربة في المخارج والصفات.
لا تطلق أحكاما قيمية على أجراء من الخطاب أو الخطاب كله.	يطلق الأحكام القيمية على أجزاء من الخطاب تشير إلى العناصر البلاغية المكونة للخطاب دون البحث فيما تقتضي إليه من بناء وتناسق.
تشير إلى مكونات الخطاب جميعا وتبحث فيما تفضي إليه بناء وتناسقا وشكلا ومضمونا.	لا تبحث في قوانين الخطاب الأدبي.
تبحث في قوانين الخطاب ومكوناته البنيوية والوظيفية.	يدرس الخطاب دراسة جزئية.
تدرس الخطاب دراسة شمولية من حيث الظاهر والباطن.	

وقد قدم محمد عزام تفسيراً فلسفياً موضوعياً لهذه الفروق بين العلمين عندما ينص على أن رؤية الإنسان الحديث تختلف عن رؤية سلفه الذي كان مقيداً بمجموعة من القواعد المنتظمة التي تمثل ثقافة عصره وفكرته عن الإبداع الأدبي واللغوي، وإذا كان العالم القديم يعيش في عالم مخلوق تخضع فيه كل الأشخاص والأشياء لمراتب ومقولات لها علاقة بالعقل والحق والخير والجمال وغيرها من المثل الأفلاطونية، فإن العالم الحديث، وقد ألغى كل هذه المنطلقات وحولها إلى خلق متجدد خاضع للتجربة، فقدت البلاغة حقوقها، وألغت قواعدها وقوانينها النموذجية بعد أن تغيرت نظرة الإنسان إلى المجتمع والحياة والكون، فتغيرت تبعاً لذلك وظائف اللغة ولم تعد مجرد صورة لشكل خارجي بل أصبحت وسيلة هامة للتواصل والتعبير عن الأفكار والمشاعر في موقف محدد نابع من ذوات الأفراد ووضعهم الاجتماعي ما جعل اللغة، وبالتالي البلاغة تمتزج بالحياة العملية، ومن هنا ماتت البلاغة ليولد مكانها علم الأسلوب (28).

وأصبحت الأسلوبية، اليوم، هي البلاغة الجديدة المنوط بها القيام بدورين أساسيين، كعلم للتعبير وكنقد للأساليب الفردية، بعد القصور الذي لوحظت جوانبه في حق البلاغة وقد أتاح الفرصة للأسلوبية الحديثة لأن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة.

فهذه الأخيرة قد جمدت عند حدود التعبير ووضع مسمياته وتصنيفها ولم يخطر لها على بال محاولة دراسة العمل الأدبي الكامل كبنية، وكان بمثابة تمهيد لحلول الأسلوبية في مجال الإبداع كبديل يحاول تجاوز الجزئية القديمة وإقامة بناء علمي يبتعد عن الشكلية البلاغية التي كادت أن تغطي على قيم البلاغة الجمالية (29).

وهكذا بعدما فقدت البلاغة أهميتها بعدها مجموعة من التصورات والمناهج التقييمية المعيارية، وانحلت في علم الأسلوب الحديث "لا من حيث كونها مجموعة من الصفات التي تؤدي إلى الكتابة الجيدة، إذ لم يعد هذا مطابقاً لفكرة الإنسان اليوم عن اللغة والحياة والحياة، بل من حيث كونها جهداً مخلصاً يهدف إلى الاقتراب من مناطق القوة في التعبير والتأثير ومكوناتهما اللغوية والجمالية" (30).

والأسلوبية لم تكن تعني، أبداً، القطيعة الكاملة مع البلاغة، وكيف يكون ذلك وأولى الأسلوبيات قامت على أساس من البلاغة، ولا تزال المفاهيم والتصورات والأشكال التعبيرية التي قدمتها البلاغة مصدراً ثرياً ومعتزاً في البحث والتحليل الأسلوبي.

وفي الأسلوبية البنيوية، نجد جاكبسون يحتفظ من معطيات البلاغة القديمة بالمفاهيم المتصلة بالصورة والاستعارة والمجاز والكناية ويحاول إيجاد تفسير مناسب لها في ضوء اللسانيات الحديثة، ويبين كيفية توظيفها توظيفاً فنياً.

ومع التراجع المسجل للبلاغة في ميدان العلوم الإنسانية وتقدم الأسلوبية ملء هذا الفراغ، فقد وجدت محاولات جادة سعت لإنشاء صيغة ملائمة للتكامل بين العلمين أو بعبارة أدق سعت إلى بعث بلاغة جديدة مواكبة للأسلوبية.

هوامش المداخلة:

- (1) منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط:1، 1990، ص: 29.
- (2) محمد عزام: الأسلوبية منهجاً نقدياً، ص: 11.
- (3) عدنان بن ذريل: اللغة والأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980، ص: 140.
- (4) جوزيف ميشال شريم: دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط: 1987، 2، ص: 37-38.
- (5) عبد السلام المسدي: (محاولات في الأسلوبية الهيكلية)، ص: 110.
- (6) بيير جيرو: الأسلوب والأسلوبية، ص: 06.
- (7) المرجع نفسه، ص: 05.
- (8) عزة آغا ملك: (الأسلوب من خلال اللسانيات) مجلة الفكر العربي المعاصر، ع: 38، آذار 1986، ص: 84.
- (9) صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص: 365.
- (10) سامي الرياع: (البنائية والتحليل الأدبي) مجلة الفيصل، ع: 103، سنة 1995، ص: 29.
- (11) صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص: 366.
- (12) منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، ص: 191.
- (13) عبد السلام المسدي: في آليات النقد الأدبي، ص: 68.
- (14) المرجع نفسه، ص: 69.
- (15) هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية، ص: 23-24.
- (16) المرجع نفسه، ص: 20.

- (17) عدنان بن ذريل: اللغة الأسلوب، ص: 97.
- (18) بيير جيرو: الأسلوب والأسلوبية، ص: 16-17.
- (19) المرجع نفسه، ص: 17.
- (20) عبد السلام المسدي: الأسلوب والأسلوبية، ص: 42.
- (21)، (22) المرجع نفسه، ص: 52.
- (23) المرجع نفسه، ص: 53.
- (24) المرجع نفسه، ص: 54.
- (25) رجاء عيّد: البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، منشأة المعارف الإسكندرية 1993، ص: 19.
- (26) لطفي عبد البديع: التركيب اللغوي للأدب بحث في فلسفة اللغة والاستيعاقا، مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط:1، 1997، ص: 91-92.
- (27) نور الدين السد: الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج:1، ص: 28.
- (28) محمد عزام: الأسلوبية منهجا نقديا، ص: 38-39.
- (29) محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص: 259.
- (30) محمد عزام: الأسلوبية منهجا نقديا، ص: 40.